

## الدرس الخامس والثلاثون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد:

يقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب التميمي رحمه الله تعالى في كتابه «كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد» :

### باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله

وقول الله تعالى : { وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ } [التغابن: ١١] . قال علقمة : «هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم» .

\*\*\*\*\*

فهذه الترجمة ((باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله)) ؛ قوله «من الإيمان بالله» أي أن الإيمان بالله سبحانه وتعالى شعب كثيرة وأمور عديدة ، كما قال نبينا صلوات الله وسلامه عليه ((الإيمان بضع وسبعون شعباً أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق)) .

وفي هذه الترجمة بيان لمكانة الصبر العظيمة ومنزلته العلية وحاجة المسلم إليه في جميع أمور الدين ، ولهذا جاء في الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ((وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ)) أي: يضيء لصاحبه طريقه ويبيد عنه ويبيده عن ظلمات الباطل ؛ ومن ذلكم ظلمات الجزع والتسخط ودعاوى الجاهلية التي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان ، وجاء في الصحيحين عن نبينا عليه الصلاة والسلام أنه قال : ((مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ)) مما يدل على عظم هذه العطية وكبر هذه المنة ؛ من يكرمه الله سبحانه وتعالى ويمنّ عليه بالصبر من الله عليه بعطاء عظيم وخير واسع عميم لماذا ؟ لأن الصبر مقام عظيم من مقامات الدين يحتاجه العبد في جميع أعمال الدين فعلاً وتركاً ، لأن من لا صبر عنده لا تنهض نفسه لقلة أو ضعف صبره لفعل الأوامر ، ومن لا صبر عنده لا تحجم نفسه عن النواهي ؛ فالعبد محتاج حاجة ماسة إلى الصبر ليعبد الله وليقوم بما أمره الله سبحانه وتعالى به ، ومحتاج أيضاً حاجة ماسة إلى الصبر ليتجنب ما نهاه الله سبحانه وتعالى عنه ، وأيضاً يحتاج إلى الصبر في مقام القضاء والقدر ما يقدره الله سبحانه وتعالى عليه من أقضية مؤلمة كفقد محبوب أو حصول مرض أو حلول مصيبة أو نحو ذلك ، فإذا لم يكن عنده الصبر وقع في الجزع والتسخط وغير ذلك من الأعمال التي تسخط الله جل وعلا .

فإذا العبد يحتاج إلى الصبر حاجة ماسة في أمور الدين كلها ، وهذا يبين لنا معنى قول نبينا صلى الله عليه وسلم المتقدم ((مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ)) ، لماذا ؟ لأن في الصبر جماع الخير ، إذا وُجد في العبد الصبر وأكرمه الله سبحانه وتعالى بالتحلي به تمكن من فعل المأمورات وتجنب المنهيات ، وتمكن أيضا بفضل من الله سبحانه وتعالى ومن البعد عن الجزع والتسخط وغير ذلك من أعمال الجاهلية التي تقع منهم عند حلول المصائب ، ولهذا قال العلماء رحمهم الله تعالى : إن الصبر أنواع ثلاثة :

١. صبرٌ على الطاعة .

٢. وصبرٌ عن المعصية .

٣. وصبرٌ على أقدار الله تبارك وتعالى المؤلمة .

والحديث في هذه الترجمة عن «الصبر على أقدار الله» ، والمراد بأقدار الله تبارك وتعالى: أي المؤلمة للعبد ، كمثلاً موت قريب ، أو حصول مصيبة ، أو حلول جائحة على ماله ، أو نقص واعتلالٍ مثلاً في صحته أو غير ذلك ، والابتلاءات متنوعة وهذه الحياة الدنيا ميدان للابتلاء ، قال الله سبحانه وتعالى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧] .

فمقام الصبر مقامٌ عظيم ؛ الصبر على أقدار الله تبارك وتعالى المؤلمة للعبد ، ولا يتمكن العبد من الصبر على الأقدار إلا إذا آمن بالله وآمن أن الأمور بقضائه وقدره ، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأن المصائب قضاء وقدر ، ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [التغابن: ١١] أي بقضائه وقدره ، والمراد بالإذن هنا : أي الإذن الكوني القدري ، أي لا يصيب العبد مصيبة إلا وهي قضاء وقدر ، قضاها الله سبحانه وتعالى وقدرها ابتلاءً وامتحاناً وتمحيصاً ، هذه الأفضية والأقدار المؤلمة للعبد لم ينزلها الله تبارك وتعالى بعبد المؤمن ليهلكه وإنما أنزلها تبارك وتعالى ليمحّص بها عباده المؤمنين ، وليكفّر بها عن سيئاتهم ، ويرفع بها درجاتهم ، وليميز الله تبارك وتعالى الصادق من الكاذب والصابر من الجازع ، فمثل هذه المصائب التي يتلى بها العبد هي باب من أبواب الابتلاء والامتحان في هذه الحياة الدنيا ، ومثل ما أن الله سبحانه وتعالى يتلى العبد بالنعمة والسراء فإنه كذلك يتلى بالمصيبة والضراء ، قد قال نبينا عليه الصلاة والسلام : ((عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ)) أي ذلك النجاح في هذا الامتحان لا يكون إلا للمؤمن ، لأن المؤمن إذا أصابته سراء -أي أمور سارة ومفرحة- يعلم أنها منة الله عليه وفضله سبحانه وتعالى فيحمد الله ويشكره فيفوز بثواب الشاكرين ، وإذا ابتلي بضراء ومصيبة وأقدار مؤلمة يعلم أنها من عند الله أي بإذنه وقضائه وقدره جل

في علاه ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ولا يفتح على نفسه في هذا الباب عمل الشيطان بقول لو أي فعلت كذا أو لو أي لم أفعل كذا ، ((اِحْرَصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِزْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ)) ، فالمؤمن يعلم أن الأمور بقضاء الله سبحانه وتعالى وقدره فيرضى ويسلم ويصبر على ما أصابه ، ويرجو من الله تبارك وتعالى أن يثيبه على هذا الصبر ؛ فيفوز في ضراءه بثواب الصابرين ، كما أن المبتلى بالنعماء ينال في هذا المقام ثواب الشاكرين .

فالصبر على أقدار الله أي المؤلمة بابٌ عظيم من أبواب الإيمان ؛ ولهذا قال رحمه الله: ((من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله)) ؛ من الإيمان بالله أي: رباً خالقاً رازقاً مدبراً قديراً له القدرة الشاملة والمشيئة النافذة والتدبير لهذا الكون عطاءً ومنعاً ، خفضاً ورفعاً ، قبضاً وبسطاً ، عزاً وذلاً ، حياةً وموتاً ، الأمر كله لله ، فمن الإيمان به سبحانه وتعالى الصبر على أقداره؛ أي على أقداره التي تؤلم العبد ، مثل موت قريب أو فقد حبيب أو ضياع مال أو تلف مثلاً تجارة أو غير ذلك من الابتلاءات التي يبتلي الله سبحانه وتعالى بها عبده المؤمن ، فمن الإيمان به جل في علاه الصبر على أقدار الله .

والصبر على أقداره سبحانه وتعالى المراد به : حبس النفس أي منعها من التسخط والجزع ، ومنع اللسان أيضا من التسخط والدعاء بدعوى الجاهلية من صياح وندب وغير ذلك ، وحبس اليد من لطم الحدود وشق الجيوب ؛ ولهذا فإن الصبر على أقدار الله تبارك وتعالى المؤلمة يكون بالقلب بحبس القلب ومنعه من التسخط والجزع ونحو ذلك ، ويكون أيضا باللسان بحبس اللسان ومنعه من الدعاء بدعوى الجاهلية ، وأيضا فيما يتعلق بالجوارح بمنعها من ضرب الحدود وشق الجيوب ونحو ذلك من أعمال الجاهلية ؛ فمن الإيمان بالله تبارك وتعالى الصبر على أقدار الله .

قال : ((وقول الله تعالى ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾ )) ؛ قبلها قال الله سبحانه وتعالى ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾ ؛ ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ ﴾ أي : من موت أو مرض أو فقر أو غير ذلك ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي : إذنه تبارك وتعالى الكوني القدري ، معنى بإذن الله : أي بقضائه وقدره ، والمصيبة التي أصابت العبد مكتوبة عليه ، كُتبت في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ﴿ إِنْ ذَلِكَ فِي كِتَابِ إِنْ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرُ ﴾ [الحج: ٧٠] ، قال عليه الصلاة والسلام : ((كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ)) ، وهذا الذي أصاب العبد وكتبه الله عليه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، فالأمر كله قضاء وقدر ، الأمور كلها بقضاء الله سبحانه وتعالى وقدره ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ ﴾ أيأ كانت ومهما كانت ﴿ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ أي بقضاء الله سبحانه وتعالى وقدره .

﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ ؛ ومن يؤمن بالله : أي رباً خالقاً متصرفاً مدبراً لهذا الكون ، يعطي ويمنع ، يخفض ويرفع ، يقبض وييسط ، يعز ويذل ، يحيي ويميت ، يُبكي ويُضحك ، من يؤمن بالله وأنه المعبود بحق ولا معبود بحق سواه ، إليه الالتجاء وإليه المفزع وإليه المثاب ولا مفر من الله إلا إليه من يؤمن بالله ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ ؛ يهد قلبه : أي إلى الصبر ، إلى اليقين ، إلى الرضا بقضاء الله سبحانه وتعالى ؛ وهذا يوضح لنا الترجمة وهي قوله ((من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله)) ، فالصبر بلوغ العبد له وتحقيقه فرغ عن المعرفة بالله سبحانه وتعالى والإيمان به ، فإذا كان مقام الإيمان بالله عنده متحققاً وامتماً بلغ مبلغاً عظيماً من الصبر ، لأن من الإيمان بالله الصبر ، أي أن الإيمان بالله يثمر الصبر على أقداره تبارك وتعالى ، كلما قوي إيمان العبد بالله قوي صبره ، وإذا ضعف الإيمان ضعف الصبر ، قال : ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ .

((قال علقمة)) وهو ابن قيس النخعي إمام جليل من أئمة التابعين رحمه الله تعالى ، قال في معنى هذه الآية : ((هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم)) ؛ ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ أي أن من كان مؤمناً بالله وبقضائه الله وقدره ، وأن الأمور كلها بمشيئة الله ، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن يهد قلبه أي لكل خير ؛ يهديه إلى اليقين ، يهديه إلى الصبر ، يهديه إلى الرضا ، يهديه إلى خيرات عظيمة . ﴿يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ وهذا فيه أن هداية القلب بيد الله سبحانه وتعالى ، وأن الهادي هو الله ، وأن العبد لا نيل له لشيء من الهداية إلا بأمر الله وقضائه جل في علاه فهو الهادي جل وعلا ، قال : ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾ أي يهد قلبه إلى كل خير ، ومن ذلكم الصبر واليقين والرضا .

قال رحمه الله :

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «اثنتان في الناس هما بهم كفر : الطعن في النسب ، والنياحة على الميت» .

\*\*\*\*\*

قال رحمه الله تعالى : ((وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «اثنتان في الناس هما بهم كفر : الطعن في النسب ، والنياحة على الميت» )) ؛ أولاً الأسلوب هنا أسلوب عظيم في التشويق في مقام التحذير من الأمور التي تسخط الله وتغضبه ، فقال عليه الصلاة والسلام محذراً : ((اثنتان في الناس هما بهم كفر)) ؛ إذا وصل إلى سمع الإنسان هذا البيان تتطلع نفسه إلى معرفة هذين الأمرين ليكون منهما على حذر ، وليحرص على البعد عنهما واجتنابهما ، لأن المقام مقام تحذير . ويأتي أيضاً مثل هذا الأسلوب في

الترغيب؛ مثل قوله عليه الصلاة والسلام : ((كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ: سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ، سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ)). فيأتي هذا الأسلوب أسلوب التشويق في مقام الترغيب ويأتي أيضاً في مقام الترهيب ، والمقام هنا مقام ترهيب وتحذير من هاتين الخصلتين الذميتين التين هما من خصال الكفر وشعبه .

قال: ((اثنتان في الناس هما بهم كفر)) ، وقوله «هما بهم» تنبيهٌ إلى بقاء هاتين الخصلتين ووجودها ، مثل ما قال في الحديث الآخر : ((أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتَرَكُونَهُنَّ)) إشارة إلى بقاء هذه الأعمال في كثير من الناس أو في أعداد من الناس .

((اثنتان في الناس هما بهم كفر)) ؛ والكفر هنا هو كفر دون الكفر الأكبر الناقل من الملة ، لأن الكفر كفران: كفر ناقل من الملة ، وكفر دون ذلك ليس بناقل من الملة ، وهو يطلق على ما كان من شعب الكفر وخصاله ولا يكون وحده مخرجاً ولا ناقلاً من ملة الإسلام .

قال: ((اثنتان في الناس هما بهم كفر)) ؛ ووجود شعبة من شعب الكفر أو خصلة من خصاله لا يلزم منه قيام الكفر الأكبر في مَنْ قامت به شعبة من شعب الكفر أو خصلة من خصاله ، مثل ذلك تماماً أن قيام شعبة من شعب الإيمان في شخص لا يلزم منه أن يكون مؤمناً ما لم يكن قام به أصل الإيمان وحقيقة الإيمان ، قد يوجد في الكافر مثلاً أمانة أو صدق أو وفاء أو غير ذلك من خصال الإيمان ولا يلزم من وجودها فيه أن يكون مؤمناً . بالمقابل أيضاً وجود شعبة من شعب الكفر يعني خصلة من خصاله أو فرع من فروعه التي هي بحد ذاتها ليست كفراً لا يلزم من وجودها في الشخص أن يكون كافراً ما لم تقم فيه حقيقة الكفر . فالكفر هنا كفرٌ دون الكفر الأكبر ، ولهذا جاء منكراً في مقام الإثبات .

قال: ((اثنتان في الناس هما بهم كفر الطعن في النسب والنياحة على الميت)) الطعن في النسب : أي أنساب الناس؛ وقيةٌ فيها وتهكما وذمًا وقدحاً .

((والنياحة على الميت)) وهذا موضع الشاهد من ذكر هذا الحديث في هذه الترجمة ؛ «والنياحة على الميت» برفع الصوت بالبكاء ، والندب على وجه التسخط والجزع بذكر مآثر الميت ونحو ذلك ؛ فهذا من خصال الجاهلية وأعمال الجاهلية وهو من شعب الكفر .

قال: ((اثنتان في الناس هما بهم كفر الطعن في النسب والنياحة على الميت)) ؛ والحديث دليل على أن هذين الأمرين من كبائر الذنوب ، لأن من علامات الكبيرة وصفها بالكفر وأنها من شعب الكفر ، مثل ذلك أيضاً اللعن على فعلها ، أو الإخبار بأن فاعلها لا يدخل الجنة ، أو أنه يدخل النار ، أو ذكر السخط سخط الله على الفاعل ، أو نحو ذلك .

قال رحمه الله :

ولهما عن ابن مسعود مرفوعاً : «ليس منا من ضرب الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية» .

\*\*\*\*\*

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث المخرج في الصحيحين عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً أي إلى النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ليس منا من ضرب الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية » . ((ليس منا)) هذه الصيغة دالة على أن الأمور المذكورة من كبائر الذنوب ، ومما يُعرف به أن الأمر كبيرة أن يقول النبي صلى الله عليه وسلم عن فاعله ((ليس منا)) . وقوله ((ليس منا)) ليس نفيًا للإيمان من أصله ولا يراد به إخراج فاعل ذلك من الإيمان ومن الدين ، وإنما المراد بذلك أن هذا الأمر من الكبائر ؛ كبائر الذنوب المنافية لكمال الإيمان الواجب ، فهي قاذحة في كمال الإيمان الواجب ليست قاذحة في أصل الإيمان . قال: ((ليس منا من ضرب الخدود)) ضربَ الخدود : أي لطمَها ؛ وهذا يفعله أهل الجاهلية عند المصيبة ، وربما لطم بعضهم خده لطمًا شديدًا عنيفًا مضرًا به ، ربما يؤدي إلى تلف بعض الحواس من شدة اللطم الذي يكون منه على نفسه .

((ضربَ الخدود)) أي لطمها ، ودُكرت الخدود هنا لا لأن الحكم قاصر عليها ، وإنما لأن الغالب إنما يكون اللطم على الخدود ، وإلا من ضرب ولطم عند المصيبة أي موضع من بدنه فعمله هذا من أعمال الجاهلية التي قال النبي صلى الله عليه وسلم عن فاعلها في هذا الحديث ((ليس منا)) ، لكن دُكرت الخدود لأن اللطم في الغالب عليها. وهذا الفعل فعلٌ جاهلي يدل على سفَه العقل ، وإلا أيُّ فائدة تترتب على لطم الإنسان عند المصيبة لخده!! بل إنه يجمع في لطمه لخده إلى مصيبته مصيبة أخرى على نفسه بهذا الضرب الذي يضرب به نفسه ويؤثر به على حواسه وعلى بدنه ، فهذا عمل جاهلي ويدل على سفَه عقل من يفعل ذلك .

((ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب)) والجيب : هو الفتحة التي تكون في الثوب التي يُدخل بها الرأس ، والمراد بشقها: أي تمزيق الثوب بأن يمسك بيده اليمنى طرف الفتحة الأيمن وبيده اليسرى طرف الفتحة الأيسر ثم يجذب الثوب فيتمزق قطعتين ، وسواءً كان تمزيقه للثوب كاملاً أو لجزءٍ منه ، وسواءً كان التمزيق في الجيب أو في موضع آخر من الثوب كل ذلك من أعمال الجاهلية، وإتلاف للمال وإضاعة له بما لا ينفعه في مصيبته أي نفع بل يضره مضرة عظيمة ، وهو دليل على سفَه عقل فاعل ذلك .

((ودعا بدعوى الجاهلية)) أي من تسخطٍ وجزعٍ وندبٍ فيه تسخط على قضاء الله تبارك وتعالى وقدره ، فهذا كله من أعمال الجاهلية التي قال نبينا عليه الصلاة والسلام عن فاعلها «ليس منا» ؛ قال ((ليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية)) .

ومقام الصبر في هذا الموضع هو بمنع النفس من مثل هذه الأعمال وحبسها ؛ حجزها أن تفعل شيئاً من ذلك ؛ يمنع اللسان من أن يقول أيّ قولٍ يسخط الله ، وحبس الجوارح من أن تفعل أي فعلٍ يسخط الله ، فيأتي هنا مقام الصبر بحبس النفس ومنعها عن الجزع والتسخط وشق الجيوب ولطم الحدود والدعاء بدعوى الجاهلية .

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا ، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة » .

\*\*\*\*\*

ثم أورد رحمه الله تعالى هذا الحديث حديث أنس ابن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((إذا أراد الله بعبده الخير عجل له بالعقوبة في الدنيا)) ؛ بأن يبتليه بابتلاءات سواءً مثلاً في صحته أو مثلاً في ماله أو غير ذلك من الابتلاءات المتنوعات ﴿وَلْتَبْلُواْكُمْ بَشِيْءٌ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٥٥] ، فيبتليه سبحانه وتعالى بالمصائب لتطهيره وتنقيته من المعائب ، لأن المصائب كفارات وممحصات تمحص العبد وتنقيه وتطهره ، فإذا أراد الله سبحانه وتعالى بعبده المؤمن خيراً عجل له بالعقوبة في الدنيا أي العقوبة على الذنب الذي اقترفه والمعصية التي ارتكبها بأن تكون عقوبة معجلة ؛ بأن يبتليه في صحته في عافيته في ماله في أمورٍ محبوبة له ؛ بفوت محبوب أو فقد محبوب أو غير ذلك يبتليه بشيء من ذلك . ووجه إرادة الخير هنا : أن هذه المصيبة التي أصابته وتعجيل العقوبة التي حصلت له فيها تطهير له وتمحيص .

قال : ((إذا أراد الله بعبده الخير عجل له بالعقوبة في الدنيا)) بالعقوبة أي على الذنب الذي اقترفه .

((وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه)) أي مع بقاءه على الذنب ((حتى يوافي به يوم القيامة)) ؛ يكون والعياذ بالله يُذنب ويذنب ويُتبع الذنب بالذنب والخطيئة بالخطيئة وهو ممتّع بالصحة والعافية والمال وكثرة المال ممتّع بذلك إلى أن يفاجئه أن الموت وتداهم المنية ويفارق هذه الحياة بذنبه ، ((حتى يوافي به يوم القيامة)) دون أن يكون له في هذه الدنيا محصات ومطهرات له من الذنوب ، فيبقى على الذنب وهو ممتّع بالمال بالصحة بالعافية إلى غير ذلك إلى أن يفاجئه الموت وهو على حاله هذه .

هذا يستفاد منه في بابنا -باب الصبر- أن يدرك العبد المؤمن المطيع لله المحافظ على طاعة الله سبحانه وتعالى أن ما يصيبه في هذه الحياة الدنيا مطهر له من الذنوب والخطايا ، والمصائب كفارات ، قال النبي صلى الله عليه وسلم لذلك الشيخ المريض ((طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ)) ، وقال : ((مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلَا وَصَبٍ وَلَا هَمٍّ وَلَا حُزْنٍ وَلَا أَذًى وَلَا غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكِّهَا إِلَّا كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ)) فالمصائب كفارات .

والمصائب التي تصيب العبد المؤمن هي من جملة النعم التي ينعم الله سبحانه وتعالى بها عليه ، وهذا واضح قال : ((إذا أراد الله بعبد خيراً عجل له بالعقوبة في الدنيا)) أي أصابه ببعض المصائب في هذه الحياة الدنيا فتكون المصيبة في حق العبد المؤمن باب من أبواب النعمة . والمصيبة في حق العبد المؤمن نعمة من عدة وجوه بينها أهل العلم رحمهم الله تعالى :

□ الوجه الأول: أن المصيبة في حق المؤمن كفارة ؛ تكفيراً للذنوب ، فتصيبه المصائب ليظهر بها وينقى من المعائب ، فالمصائب تعدّ في حق المؤمن نعمة لأنها تطهره من أدران الذنوب .

□ والأمر الثاني : ما يترتب على حصول المصيبة عند المؤمن من صبر ورضا وإقبال على الله سبحانه وتعالى فيفوز بثواب الصابرين ، أو ما هو أزود من ذلك من رضا أو شكر لله سبحانه وتعالى حسب مقام العبد الذي يمن الله سبحانه وتعالى عليه بالمصيبة . والثواب الذي يترتب على المصيبة ليس على المصيبة نفسها وإنما على الأمور المترتبة عليها -على الصحيح من كلام أهل العلم في هذا الأمر- لأن المصائب كفارات ودل على ذلك دلائل كثيرة جداً ، المصائب كفارات لكن الثواب الذي يترتب على المصيبة إنما هو مترتب على الأمور التي تتبع المصيبة مما يمن الله به على العبد من صبر أو رضا أو شكر لله سبحانه وتعالى أو نحو ذلك .

□ كذلك ما في المصيبة من تذكير للعبد بذنوبه ؛ وكم من إنسان يكون غارق في الذنوب ومكثر من الخطايا ثم يصاب بمصيبة ويتلى ببليّة في ماله أو في صحته أو نحو ذلك فيبدأ يتفكر في نفسه ويحاسبها ويتأمل في ذنوبه وخطاياهم ويرجع إلى ربه ، كم من أناسٍ عادوا إلى الله وصدقوا في عودتهم إلى الله سبحانه وتعالى وكان ذلك بما أصيب به من مصيبة كانت فتحاً له من الله سبحانه وتعالى ليتوب إلى الله وينيب إليه سبحانه وتعالى .

□ أيضاً ما يترتب على المصيبة وحصولها من انكسار القلب وذله ، والمصاب منكسر القلب ويكثر تذله وخضوعه لله سبحانه وتعالى .

□ كذلك من فوائدها وأنها من النعم : أنها تفتح للعبد باب الإنابة والرجوع إلى الله سبحانه وتعالى ، وتفتح له أيضاً باب التضرع والدعاء والإلحاح على الله سبحانه وتعالى بالسؤال .

□ أيضاً فيها أنها تقطع القلب من الالتفات إلى المخلوقين ويُقبل على الله إخلاصاً وإلحاحاً ودعاءً ، كما قال أهل العلم : إذا كان المشرك في المصيبة والضراء يخلص ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِّ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت ٢٥] فكيف الأمر إذاً بالمؤمن !! .

□ ومر معنا في هذا الباب وهو من الدلائل على أن المصيبة في حق المؤمن نعمة : قول الله تعالى ﴿ وَلَنُبَلِّغَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمْ



مُصِيبَةً قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٦﴾

[البقرة: ١٥٥-١٥٧] .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن عِظَمَ الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضا ، ومن سخط فله السُّخْطُ » حسنه الترمذي .

\*\*\*\*\*

ثم ختم رحمه الله بهذا الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((إن عِظَمَ)) أو «عُظُمَ» كله صحيح .  
((إن عِظَمَ الجزاء مع عظم البلاء)) بمعنى أن البلاء كلما عظم كان الجزاء الذي هو الثواب أعظم؛ لماذا ؟ لأن مثل ما جاء في الحديث : ((إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ)) ، وسئل أي الناس أشد بلاء ؟ قال : ((الأنبياءُ ثُمَّ الْأُمَمُ)) ؛ فعظم الجزاء أي الثواب مع عظم البلاء لأن المقربين إلى الله وفي مقدمتهم أنبياء الله ورسله في الابتلاء يحصل منهم الضراعة والدعاء والصبر والرضا والشكر وغير ذلك فيعظم ثوابهم عند الله ؛ فتكون المصيبة في حقهم باب عظيم من أبواب رفعة الدرجات عند الله سبحانه وتعالى . ((إن عظم الجزاء مع عظم البلاء))  
((وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم)) وأشد الناس ابتلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ، ((إذا أحب الله قوماً ابتلاهم)) ابتلاهم لماذا ؟ هل ليهلكهم؟ لا والله ، وإنما ابتلاهم ليرفع درجاتهم ، ويعلي منازلهم ، ويكفر ذنوبهم وخطيئاتهم .

((إذا أحب قوماً ابتلاهم ، فمن رضي فله الرضا)) وأهل الإيمان وحسن التقرب إلى الله جل وعلا مقامهم في هذا هو مقام الرضا ، «فمن رضي» أي بما قضاه الله سبحانه وتعالى وقدره «فله الرضا» أي من الله أي يرضى الله عنه ، ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [البينة: ٨] ، وهذا فيه أن الجزاء من جنس العمل ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠] ((فمن رضي فله الرضا)) : من رضي بقضاء الله سبحانه وتعالى وقدره فله الرضا أي له من الله سبحانه وتعالى الرضا .

((ومن سخط فله السُّخْطُ)) أي له السخط من الله أن يسخط الله عليه لأنه قابل القضاء الذي قضاه الله بالتسخط . والحديث دليل على أن التسخط من القضاء في المصائب من كبائر الذنوب لماذا ؟ لأن أهل التسخط لهم السخط من الله سبحانه وتعالى ، ولا يكون ذلك إلا لاقتراف كبير . ((فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط)) أي السخط من الله جل وعلا عليه لتسخطه وجزعه عندما أصابته المصيبة ، بخلاف المؤمن الذي يعلم أنها من عند الله تبارك وتعالى فيرضى ويسلم .

وهذا الحديث والحديث الذي قبله يدل على حال العبد المؤمن الذي يكرمه الله سبحانه وتعالى بالإيمان كيف أنه يتلقى المصيبة وأنه يتعامل مع المصيبة باعتبارها أمرٌ مقضي ومقدّر وأنها باب من أبواب التكفير للذنوب وتمحيص الخطايا ورفع الدرجات عند الله سبحانه وتعالى ؛ فيرضى ويسلم فتعظم درجاته وترتفع منازلته ويزدق حلاوة الإيمان، حلاوة الصبر وحلاوة الرضا يذوقها . ولهذا بعض المصابين والمبتلين يظهر على وجهه من السرور والانبساط والانشراح والفرح أمور لا تظهر على كثير من الأصحاء .

قبل أيام قلائل التقيت بشاب لا يتحرك منه إلا رأسه، وله على هذه الحال سبع عشرة سنة ، وترى على وجهه ابتسامة ووجهه مشرق ولو رأيت وجهه فقط دون جسده تقول أن هذا الوجه وجه إنسان في كامل قواه وعافيته؛ مما ترى على وجهه من السرور والابتسامة إلى آخر ذلك ، قلت له كيف حالك يا فلان ما أخبارك ؟ فزادت ابتسامته على وجهه وقال : " الحمد لله أتقلب في نعم الله " ويحمد الله وهو له أكثر من سبعة عشر سنة وهو على هذه الحال شلل رباعي لا يتحرك إلا رأسه ويقول "أتقلب في نعم الله" !! ، وكثير من الناس يقول أتقلب في نعم الله وهو لا يستطيع أن ينقلب على الفراش الذي هو عليه ولا يستطيع أن يتحرك ، لكن لعله والله أعلم مما يجد في قلبه من رضا وصبر ، وتجذ كثير من الناس ممتع بصحة وعافية وبنعم وغير ذلك ولا يشعر بذلك ولا يكون عنده مثل هذا الحمد والاستشعار بأنه يتقلب في نعم الله سبحانه وتعالى .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى : تفسير آية التغابن .

وهي قول الله جل وعلا : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾ .

الثانية : أن هذا من الإيمان بالله .

أي الصبر على أقدار الله تبارك وتعالى من الإيمان بالله كما يدل على ذلك قوله : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ ﴾ ، قبلها قال : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾ فهذا فيه أن الصبر على أقدار الله من الإيمان بالله .

الثالثة : الطعن في النسب .

أي التحذير منه وأنه من كبائر الذنوب ، وتقدم في ذلك قول النبي عليه الصلاة والسلام : ((اثنتان في الناس هما بهم كفر : الطعن في النسب والنياحة على الميت)) .

**الرابعة : شدة الوعيد فيمن ضرب الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية .**

نعم شدة الوعيد في ذلك لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((ليس منا)) أي من فعل هذه الأمور ، ولا تأتي هذه الصيغة إلا في الكبائر ، وهي دليل على الوعيد الشديد والتهديد الأكيد لفاعل ذلك .

**الخامسة : علامة إرادة الله بعبده الخير .**

وهذه جاءت في حديث أنس قال : ((إذا أراد الله بعبده الخير عجل له بالعقوبة في الدنيا)) ، والمراد بالعقوبة : أي ما يصيبه من مصائب في هذه الحياة الدنيا فتكون في حقه كفارات لذنوبه .

**السادسة : علامة إرادة الله بعبده الشر .**

كما في حديث أنس ((وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة)) أي يبقى ممتعاً بمثلاً الصحة والعافية وتوافر المال وغير ذلك وهو باقٍ على ذنبه وباقٍ على تفريطه في جنب الله ثم يفجؤه الموت ويخرج من هذه الدنيا ثم يوافي ربه يلقي ربه بذنوبه دون أن يكون له في هذه الحياة الدنيا محصيات ومكفرات .

**السابعة : علامة حب الله للعبد .**

هذه مأخوذة من قوله عليه الصلاة والسلام : ((إذا أحب الله قوما ابتلاهم))؛ فهذا من علامة حب الله للعبد ، وإنما يكون ذلك في حق من رضي كما جاء في الحديث نفسه قال ((فمن رضي فله الرضا)) فالذي يرضى ويصبر على ما قضى الله سبحانه وتعالى وقدّر فيكون هذا الابتلاء في حقه باب من أبواب تكفير الذنوب ورفع الدرجات .

**الثامنة : تحريم السخط .**

الثامنة : تحريم السخط يعني عند المصيبة ، لا يتلقى المصيبة بالتسخط والجزع وعدم الصبر؛ فهذا أمر محرم لا يجوز ، لا يجوز للمسلم أن يتلقى المصيبة بالتسخط والجزع فهذا أمر محرم لا يجوز ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((ومن سخط فله السخط)) أي له السخط من الله ، ولا يكون السخط من الله إلا على أمر كبير . فهذا فيه تحريم هذا الأمر .

**التاسعة : ثواب الرضا بالبلاء .**

هذه المسألة التاسعة وهي المسألة الأخيرة في هذه الترجمة «ثواب الرضا بالبلاء» ؛ وهذا مأخوذ من قول النبي صلى الله عليه وسلم ((فمن رضي فله الرضا)) ، ومعنى فله الرضا : أي من الله جزاءً له من جنس عمله ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠] ، فالجزاء من جنس العمل ، فلما تلقى المصيبة بالرضا كان له من الله الرضا بأن الله سبحانه وتعالى يرضى عنه ، ومن رضي الله عنه فقد فاز الفوز العظيم ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .  
اللهم صلّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .